عُمْرة القضاء

استغرقت غزوة خيبر نحو شهر ونصف شهر، فقد ذهب النبي ﷺ إليها فى أوائل المحرم من السنة السابعة، ورجع منها فى أواخر صفر، فأقام بالمدينة شهرى ربيع وشهرى جمادى ورجبا وشعبان ورمضان وشوالا. وقد مرت هذه الأشهر الثمانية هادئة لم تقع فيها حوادث ذات بال، إلا ما كان من مناوشات بعض قبائل الأعراب فى البادية، مما كان يدعو رسول الله إلى بعث السرايا لتأديبهم، أو لقطع الطريق عليهم. ومع أن بعض هذه السرايا قتل فيها رجال من المسلمين، فإن الأمور فى جملتها ظلت تسير من حسن إلى أحسن، وظلت هيبة الإسلام تتوطد فى النفوس، ودائرته تتسع فى الأرجاء.

الرسول يحتاط لما عسى أن يكون من غدر قريش

فلما أهل شهر ذى القعدة من هذه السنة، أعد رسول الله ﷺ عدته لعمرة القضاء، وهى العمرة التى اعترفت له بها

قريش فى صلح الحديبية؛ فأمر أصحابه أن يتهيأوا لقضاء عمرتهم، وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف من أهلها إلا من مات أو قتل فى خيبر. وخرج مع رسول الله ﷺ قوم من المسلمين عُمَّارًا ممن لم يشهد الحديبية، فكان المسلمون فى هذه العمرة ألفين سوى النساء والصبيان. واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا ذر الغفارى، وساق من الهدى ستين بدَنَة وأحرم من باب المسجد، ثم سار يلبى والمسلمون معه يلبون.

وكان الشرط ألا يحمل المسلمون معهم سوى السيوف فى أغمادها؛ ولكن رسول الله ﷺ خشى غَدرة القوم، فحمل السلاح والبَيْض[1] والدروع والرماح. وقاد معه مائة فرس؛ وجعل على السلاح بشير بن سعد، وعلى الخيل محمد بن مسلمة. فلما انتهى إلى ذى الحلَيْفة[2] قدّم السلاح والخيل أمامه.

ومضى محمد بن مسلمة بالخيل إلى «مَر الظَّهْران[3]»، فوجد بها نفرًا من قريش، فسألوه عن سبب مجيئه بالخيل، فقال: هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يصبِّح هذا المنزل غدًا

(١) البيض: جمع بيضة؛ وهى غطاء للرأس يصنع من حديد.

(٢) قرية بينها وبين المدينة نحو سبعة أميال.

(٣) موضع على مرحلة من مكة، أى على مسيرة يوم بالراحلة.

إن شاء الله. ورأوا سلاحًا كثيرًا مع بشير بن سعد، فخرجوا سراعًا حتى أتوا قريشًا، فأخبروهم بالذى رأوا من السلاح والخيل؛ ففزعت قريش وقالوا: "والله ما أحدثنا حدثًا، وإنا لعلى كتابنا وهدنتنا! ففيم يغزونا محمد فى أصحابه"؟

قريش تفزع من حمل السلاح

وبعثت قريش مكرز بن حفص فى نفر من قريش إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: "يا محمد، ماعُرفت صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر! تدخل بالسلاح على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف فى القُرُب"؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنى لا أدخل عليهم السلاح». فقال مكرز بن حفص: "هذا الذى تُعرَف به من البر والوفاء". ثم رجع سريعًا بأصحابه إلى مكة فقال لهم: "إن محمدًا على الشرط الذى شرط لكم". فلما سمعت قريش اطمأنوا وأفسحوا له الطريق ليقضى عمرته.

قريش تتهافت على رؤية الرسول وأصحابه وهم يعتمرون

وتقول بعض الروايات: إن قريشًا خرجت إلى رءوس الجبال وخلّوا له مكة، وقالوا: لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه.

ويقول بعضها: إنهم جعلوا ينظرون إليه من رءوس الجبال. ويقول بعضها: إنهم صفوا له عند دار الندوة ينظرون. ويقول بعضها: قعدوا له ممايلى الحِجْر: ويقول بعضها: إنما تغيب رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله غيظًا وحسدًا.. ومهما يكن من اختلاف الروايات فإنها مجمعة على أن أهل مكة كانوا يتشوَّفون لرؤية النبى وأصحابه وهم يدخلون مكة، فقد أشيع فى قريش أن محمدًا وأصحابه نهكتْهم حُمَّى يثرب، حتى ما يَتَباعَثون من العَجَف[1]، فكان الناس مدفوعين إلى أن ينظروا إلى هؤلاء الضعاف العجاف ليشمتوا بهم. وإذا كان بعض أشراف مكة قد دفعه الحقد إلى الخروج من مكة حتى لا ينظروا إليهم، فإن كثيرين من أهل مكة دفعهم حب الاستطلاع إلى أن ينظروا. فلما نظروا أغراهم النظر بالتأمل، وأسلمهم التأمل إلى العجب.

موكب الرسول يدخل مكة

والحق أنه كان منظرًا يدعو إلى التأمل والعجب معًا، فقد دخل النبى ﷺ مكة فى موكب يبهر العيون ويسحر الألباب، إذ هو على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحون سيوفهم يحدقون به من كل جانب، ويسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشىء،

(١) ما يستطيعون النهوض لشدة ما بهم من الضعف والهزال.

وأصواتهم تَعِجُّ بالتلبية لله العلى الكبير: «لَبَّيْك اللهم لبيك»! وعبد الله بن روَاحة آخذ زمام ناقته، صلى الله عليه وسلم، وقد أخذته النَّشوَة والحميّة، فهو يرتجز بشعره بين يديه ويقول:

خلُّوا بنى الكفار عن سبيلهِ! خلواه. فكل الخير فى رسولهِ!
قد أنزل الرحمن فى تنزيله بأن خير القتل فى سبيله
يارب إنِّى مؤمن بقيله[1] أعرف حق الله فى قبوله
اليوم نضربْكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله[2] ويذهل الخليل عن خليله!

حتى إذا بلغ الحرم قال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إيهًا يا ابن رواحة! قل: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».. فجعل ابن رواحة يقولها، والناس من ورائه يرددونها فى حماسة وقوة، فيتجاوب بها الصدى فى جنبات مكة، ويسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعوها، ولا يروا ركب النبى يخطو فى نواحيها.

---

(١) بقيله: بقوله.

(٢) يزيل الهام: يزيل الرءوس عن مواضعها.

النبي وأصحابه يظهرون قوتهم لأعدائهم

وكان رسول الله ﷺ يعلم ما أشاعوا عنه وعن أصحابه من الضعف والوهن، فأوصى أصحابه ألا يرى القوم فيهم غَمِيزَة[1]، وأمرهم أن يكشفوا عن المناكب ويسعوا فى الطواف، ليرى المشركون جلَدهم وقوتهم. ودخل صلى الله عليه وسلم المسجد مضْطَبِعًا[2] بردائه، والمسلمون معه مضطبعون بأرديتهم، فسار حتى استلم الحجر الأسود بِمِحْجَنِه[3] وقال: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة»! ثم انطلق يهرول حول البيت، وأصحابه يهرولون معه حتى انتهت الأشواط الثلاثة الأولى، ثم مشى بهم بقية الأشواط السبعة. وعجب المشركون لما رأوا من قوة المسلمين ونشاطهم، واستَكَفَّ الرجال والنساء والصبيان حول البيت ينظرون إليهم وهم يطوفون به، ويقول بعضهم لبعض: "أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمَّى وَهَنتهم[4]؟ إنهم لَيَنْفِرون[5] كما تنفر الظباء".

---

(١) غميزة: شيئًا يدل على الضعف.

(٢) مضطبعًا: متلفعًا به بحيث يبقى الكتف والذراع الأيمن عاريين.

(٣) المحجن: عصا صغيرة لعلها كالتى يمسكها طلبة البوليس الآن.

(٤) وهنتهم: أضعفتهم.

(٥) ينفرون: يقفزون فى مشيهم قفز الغزلان من النشاط والقوة.

فلما انتهى الطواف ذهب رسول الله ﷺ بأصحابه إلى المسعى، فسعى على راحلته بين الصفا والمروة، حتى أتم السبعة الأشواط. فلما انتهى السعى عند المروة، وقف صلى الله عليه وسلم قال: «هذا المَنْحَر، وكل فِجَاج مكة منحر»[1] ثم نحر هَدْيه عند المروَة، وشَرِكه فى الهدْى من شهد الحديبية من المسلمين، فمن وجد بَدَنة من الإبل نحرها، ومن لم يجد نحر بقرة؛ وكانت الإبل قد عزَّت يوم ذاك، فرخَّص لهم رسول الله فى البقر. ثم حلق صلى الله عليه وسلم، وحلق أصحابه، وأحلُّوا بذلك من عمرتهم.

وكانت الخيل والسلاح قد تركت هناك فى مكان قريب يسمى «يأجج»[2] وخُلّف عندها مائتا رجل يحرسونها. فلما أتم المسلمون عمرتهم، بعث رسول الله ﷺ مائتين من أصحابه إلى بطن يأجج، ليقوموا على السلاح والخيل، ويرسلوا من خلفوا هناك من المسلمين، ليؤدوا مناسك العمرة.

بلال يؤذن فوق الكعبة

ثم إن رسول الله ﷺ دخل الكعبة وظل بها حتى جاء وقت الظهر، فأمر بلالا فأذّن فوق ظهر الكعبة، فغاظ ذلك المشركين

---

(١) المنحر: المكان الذى تذبح فيه الهدى.

(٢) يأجج: على ثمانية أميال من مكة.

غيظًا شديدًا، حتى غطى سهيل بن عمرو ورجال معه وجوههم حين سمعوا الأذان، وحتى قال عكرمة بن أبى جهل: «لقد أكرم الله أبا الحكم، فلم يسمع هذا العبد يقول ما يقول»! وقال صفوان بن أمية: «الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا»! وقال خالد بن أسيد: «الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم ابن أم بلال ينهق فوق الكعبة»! وقيل فى بعض الروايات: إنهم أبَوْا ذلك على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقالوا: لم يكن ذلك فى شرطك.

مظهر المسلمين يبهر قريشًا فتخشى أن يفتنها عن دينها

ومكث رسول الله ﷺ وأصحابه ثلاثة الأيام التى كانت لهم بالشرط، وهم يغدون ويروحون فى أرجاء مكة آمنين. وفى خلال هذه الأيام رأى أهل مكة من مظاهر القوة والتضامن بين المسلمين، ومن دلائل البر والمحبة والإخلاص بينهم وبين رسول الله، ما بهرهم وأدهشهم، وملأ قلوبهم إعجابًا بهذا الدين الذى جعل من الضعف قوة، ومن البغضاء محبة، ومن التنافر والتدابر ألفة واجتماعًا؛ وبهذا النبى الأمى، الذى استطاع أن يجعل من هذه الأشتات وحدة متماسكة، قوامها التعاطف والتساند، وهدفها

الخير والإصلاح، وأساسها العبودية والإخلاص لله وحده لا شريك له..

لقد خشى رجال مكة أن يفتنهم المسلمون عن دينهم، فما كادت تنتهى الأيام الثلاثة حتى أتى سهيل بن عمرو وحُوَيْطب ابن عبد العزى يقولان لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: «قد انقضى أجلك فاخرج عنا». وأراد رسول الله ﷺ أن يتألف قلوب القوم، وقد أحس ما فعل بها الإسلام، فقال لهما: «وما عليكم لو تركتمونى فأعْرَسْت[1] بين أظهركم، وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه»؟ فأدرك الرجلان ما هنالك من خطر عليهم وعلى دينهم، إذا تحدث محمد إليهم وتحدثوا إليه منذ اليوم، وأنهم إذا اجتمعوا به فى جو الوليمة الهادئ، وفى نشوة الأنس بهذا الصِّهْر الجديد، الذى يريد به أن يوطد الصلة ويُحكم الوشائج فيما بينه وبينهم، فإنهم لا ريب مهزومون له؛ وإنه ولا شك قادر على أن يملكهم بقوة نفسه وسحر بيانه، وأن يصدع ما بينه وبينهم من تلك الحواجز التى صنعوها بأنفسهم، ولا سيما بعد ما رأى الناس من آثاره وأياديه ما رأوا، وبعد أن هفَت قلوب كثيرة إلى الإسلام، وأخذت قلوب أخرى ترقّ ثم

(١) أعرس الرجل: إذا دخل بعروسه. وكان النبى قد خطب وهو فى مكة ميمونة بنت الحارث ولم يدخل بها بعد.

ترقّ حتى كادت تشفّ.

هكذا قدر الرجلان فقالا على الفور: «لا حاجة لنا فى طعامك! اخرج عنا! نَنْشُدُك الله والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت عن أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت»!.. وأثارت هذه الغلظة سعد بن عبادة سيد الأنصار، فقام غاضبًا إلى سهيل بن عمرو يقول له: «كذبت، لا أمَّ لك! ليست بأرضك ولا أرض أبيك! والله لا يبرح منها إلا طائعًا راضيًا».. فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «يا سعد، لا تُؤْذِ قومًا زارونا فى رحالنا». فانحسم بذلك الموقف وأمر رسول الله بالرحيل عن مكة، فرحل الجميع إلى «سَرِف»، وهو موضع من ضواحى مكة قرب «التنعيم»، على نحو تسعة أميال من مكة.

وكان صلى الله عليه وسلم قد خطب إليه ميمونة بنت الحارث، وكانت من كرائم النساء فى قريش، وكانت أختها - أم الفضل بنت الحارث - زوجة العباس بن عبدالمطلب؛ فتولى العباس زواجها للنبى، صلى الله عليه وسلم، فبَنى[1] بها فى سرف.

---

(١) بنى بها: دخل بها.

كانت عمرة القضاء غزوة مباشرة لقلوب أهل مكة

وهكذا غادر رسول الله ﷺ مكة وقد ترك فيها أثرًا عميقًا، وغزا نفوس الضعفاء والأقوياء من أهلها على السواء، وتفتحت لدينه قلوب عَصِيَّة لم تكن لتفتح له من قبل؛ «فريق منهم بهرهم وفاء النبي بعهده مع استطاعته نقضه، وفريق منهم راعهم سَمْت الدين ورَحم الإسلام فيما بين المسلمين، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من طاعة وتمكين؛ وفريق منهم علموا أن العاقبة للإسلام فجنحوا إلى طريق السلامة والسلام. وحسبُك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت فى آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية، ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما فى رجاحة العقل مثلان متكافئان، وإن كانا لا يتشابهان»[1].

---

(١) عبقرية محمد.